أ.د. محمد مصطفي زيادة

(١٩٠٠-١٩٦٨م)

مؤرخاً للحروب الصليبية

إعداد

ا.د.محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطي

بجامعتي عين شمس والشارقة

ا.د.محمد مصطفي زيادة (١٩٠٠-١٩٦٨م)

مؤرخاً للحروب الصليبية

نتناول في البحث التالي عرضاً عن المؤرخ المصري الرائد الراحل ا.د. محمد مصطفي زيادة وإسهامه في مجال تاريخ الحروب الصليبية ، وموقعه بين المؤرخين المصريين الرواد الذين درسوا تلك الحقبة التاريخية المحورية.

لقد ولد مؤرخنا في المحلة الكبرى في ٩ مايو ١٩٠٠م بعد نحو ٨ أعوام من وقوع الاحتلال البريطاني علي أرض الكنانة مصر ، من أسرة وصفت بانها قدرت العلم والعلماء ،وواصل فيما بعد دراسته حتى حصل علي شهادة البكالوريا ، وألتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وصار من أوائل خريجيها ، ولذلك تمت مكافأته بأن أبتعث إلي إنجلترا للحصول علي ليسانس التاريخ ، وحصل عليه بالفعل بمرتبة الشرف مما دل علي تفوقه المبكر ، ثم تم تعيينه بمدرسة العباسية الثانوية بمدينة الإسكندرية في ٢٦ سبتمبر ١٩٢٥م بعد (٦) أعوام فقط من اندلاع ثورة مصر الخالدة عام ١٩١٩م بقيادة سعد زغلول باشا.

فيما بعد ، تم ابتعاثه إلي إنجلترا ، فسافر إلي جامعة ليفربول Liverpool في أول أكتوبر عام ١٩٢٧م ، وتعد الجامعة المذكورة من أقوي الجامعات البريطانية ويري البعض أنها تنافس بجدارة جامعتي كمبردج Cambridge وأكسفورد Oxford ، وكافح مؤرخنا إلي أن حصل علي الدكتوراه في تاريخ العصور الوسطي عام ١٩٣٠م ، وكان موضوع رسالته " العلاقات الخارجية لمصر في القرن الخامس عشر الميلادي ".

عاد مؤرخنا أدراجه إلي أرض الكنانة ، وتم تعيينه مدرساً لتاريخ العصور الوسطي بجامعة القاهرة وهي الجامعة الأم لكافة جامعات مصر والعالم العربي في أول مارس من عام ١٩٣١م وتدرج في سلك الجامعة إلي أن صار أستاذاً مساعداً في ٢٧ يناير ١٩٣٧م وفيما بعد ، صار أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطي بالجامعة المذكورة في ٣ يناير ١٩٤٩م ،في العام التالي لحرب فلسطين عام ١٩٤٨م.

إتجه ا.د. محمد مصطفي زيادة إلي الإشراف علي عدد من طلاب الدراسات العليا الذين صاروا فيما بعد من كبار أساتذة تاريخ العصور الوسطي في مصر وفي هذا الصدد

نذكر أسماء بارزة مثل : حسن حبشي الذي أشرف علي رسالته للماجستير بعنوان نور الدين محمود والصليبيون ، وسعيد عاشور الذي أشرف علي أطروحته للماجستير بعنوان قبرص والحروب الصليبية وللدكتوراه بعنوان المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك ، والمؤرخان المذكوران يعدان – وبحق – من أعلام المدرسة التاريخية المصرية الحديثة وقد أشرفا بدورهما علي عشرات من طلاب الدراسات العليا المصريين ،و العرب كما قدما عشرات المؤلفات التاريخية القيمة للمكتبة العربية ،كذلك لا نغفل نظير حسان سعداوي الذي أشرف علي رسالته علي الجيش العربي المصري في عهد صلاح الدين.

وبعد رحلة حافلة بالعطاء العلمي ، وافته المنية يوم الأحد ٨ ديسمبر ١٩٦٨م ، فأسف علي رحيله تلاميذه وزملاؤه.

قدم مؤرخنا عدة مؤلفات للمكتبة العربية يمكن إجمالها علي النحو التالي :

١- رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ،ط. القاهرة ١٩٣٩م.

٢- مصرو الحروب الصليبية ، وقد صدر في الأصل بالإنجليزية وترجمه إلي العربية محمد سعيد منصور.

٣- المصريون في قبرص ، وقد صدر أصلاً بالإنجليزية وتمت ترجمته إلي العربية علي يد د. عبد الحمن زكي ضمن رسائل وزارة الدفاع الوطني ،ط. القاهرة ١٩٤٣م ٤- المحاولات الحربية للاستيلاء علي جزيرة رودس من جانب المماليك في القرن الخامس عشر ، وهو في الأصل بالإنجليزية ، وترجم إلي العربية علي يد د. حمال الدين الشيال ومحمد سعيد منصور وطبع بالقاهرة عام ١٩٤٥م.

٥- المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ،ط. القاهرة ١٩٤٩م.

٦- (بالاشتراك) الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها ،ط. القاهرة ١٩٥٤م.

٧- (بالاشتراك) تاريخ الإسلام في مصر الإسلامية ،ط. القاهرة ١٩٥٥م.

٨- حملة لويس التاسع علي مصر وهزيمته في المنصورة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ،ط. القاهرة ١٩٦١م.

أما البحوث والمقالات فتتمثل في التالي:

١- نهاية السلاطين المماليك في مصر ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد عام ١٩٥١م

٢- الغزوة الأولي لاستيلاء الصليبيين علي مصر ، ضمن كتاب كفاحنا ضد الغزاة ،ط. القاهرة.

٣- بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عدد عام ١٩٥٦م.

٤- الدولة المملوكية الأولي ، ضمن كتاب تاريخ الحضارة المصرية ،م (٢) ،جـ(٧) ،ط. القاهرة ١٩٦٣م.

٥- حركة البناء والتعمير في عصر الناصر محمد من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، المجلة التاريخية المصرية ،م (٩ ، ١٠ عام ١٩٦٢م.

٦- مقتبسات من ابن إياس ، المجلة التاريخية المصرية ،م (١٢) عام ١٩٦٤- ١٩٦٥م

٧- "وفاء ورثاء لمحمد شفيق غربال " ، المجلة التاريخية المصرية ،م (٩٩ عام ١٩٦٢م.

٨- الدولة الأيوبية ،مقال في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، ط. القاهرة ب.ت.

أما في مجال التحقيق ، فيذكر له تحقيقه الفريد لكتاب المقريزي شيخ مؤرخي مصر الإسلامية بعنوان : السلوك لمعرفة دول الملوك في ٦ أقسام علي مدى الأعوام من ١٩٣٤- ١٩٥٨م ، ويعد تحقيقه لذلك المصدر البالغ الأهمية مدرسة قائمة بذاتها عكست ما تمتع به من صبر ، وجلد ، ودقة متناهية دلت بالفعل أننا أمام محقق تراث من الطراز الأول من خلال مقارنة النسخ المخطوطة والتعليقات والحواشي الثرية !١.

أما في الترجمة فنذكر له التالي :

١- رودس ، التاريخ الإنجليزي ،ط. القاهرة ١٩٣٢م.

٢- هربرت فيشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ،ط. القاهرة ١٩٥٤م.

٣- كوبلاند وفينوجرادوف ، الإقطاع والعصور الوسطي في غرب أوروبا ،ط. القاهرة ١٩٤٨م.

٤- كريستوفر دوسون ، تكوين أوروبا ،بالاشتراك مع سعيد عاشور ،ط. القاهرة ١٩٦٧م.

كما حرص مؤرخنا علي القيام بعرض لبعض المصادر والمراجع الحديثة ويمكن إجمال ما قدمه في هذا المجال علي النحو التالي:

١- الذيل علي الروضتين لأبي شامة المقدسي ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، المجلة التاريخية المصرية ،م (٢) عام ١٩٤٩م.

٢- فضائل الشام ودمشق ، تأليف الربعي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجلة التاريخية المصرية م (٤) ، جـ (١) عام ١٩٥١م.

٣- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المجلة التاريخية المصرية ، م (٤) عام ١٩٥١م.

٤- تاريخ الحروب الصليبية تأليف رنسيمان ، المجلة التاريخية المصرية ،م (٣) جـ(١) عام ١٩٥٠م.

٥- نقد الحروب الصليبية ، تأليف ثروب بالمر Throp Palmer ، المجلة التاريخية المصرية ، م (٣) ،جـ (١) عام ١٩٥٠م.

أما المؤلفات بالإنجليزية فنذكر منها :

The Mamluk Sultans , in A History of The Crusades, ed.k. Setton [1]Pennsylvania 1955.

واقع الأمر ، يدل استعراض الإصدارات السابقة أننا بالفعل أمام مؤرخ ، ومحقق ، ومترجم بارز قدم للمكتبة العربية العديد من المؤلفات ، والصفة المذكورة وجدناها من بعد ذلك لدي بعض تلاميذه خاصة المؤرخ القدير ا.د. حسن حبشي [٢] ، والمؤرخ القدير الرائد سعيد عاشور [٣].

أما عن اسهامه في مجال تاريخ الحروب الصليبية فسيتم التعرض له علي مدي الصفحات التالية :

واقع الأمر ، يعد كتاب " حملة لويس التاسع [٤] علي مصر وهزيمته في المنصورة ، الصادر بالقاهرة عام ١٩٦١م ، بمثابة العمل الرئيسي لمؤرخنا في مجال تاريخ الحروب الصليبية ، ولذلك علينا البحث فيه ؛ من أجل التوصل إلي رؤيته لتلك المرحلة الفارقة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي ، وأدوات تعبيره عن تلك الرؤية من خلال منهجيته التاريخية .

وقد قسم ا.د محمد مصطفي زيادة كتابه إلي سبعة فصول جاءت علي النحو التالي :

الفصل الأول : مصر ومملكة بيت المقدس ١٠٩٧-١١٩٣م / ٤٩٢- ٥٩١هـ.

الفصل الثاني : نشأة مدينة المنصورة ١٢١٩م/ ٦٦١هـ.

الفصل الثالث : الهدنة بين المسلمين والصليبيين ١٢٢١- ١٢٤٨م / ٦١٨- ٦٤٦هـ.

الفصل الرابع : لويس التاسع واستيلاؤه علي دمياط ١٢٤٥- ١٢٥٠م / ٦٤٣-٦٤٨هـ.

الفصل الخامس : معركة المنصورة الثلاثاء ٩ فبراير سنة ١٢٥٠/ ٤ ذو القعدة سنة ٦٤٧هـ.

الفصل السادس هزيمة لويس التاسع وأسره الأربعاء ٦ أبريل سنة ١٢٥٠م/ ٢ المحرم سنة ٦٤٨هـ.

الفصل السابع : جلاء الصليبيين عن دمياط الأحد ٨ مايو ١٢٥٠م / ٤ صفر سنة ٦٤٨هـ.

نجد مؤرخنا يعرف الحروب الصليبية تعريفاً شاملاً يأخذ بالعديد من الأبعاد حيث قال :" الحروب الصليبية نفسها حركة أوروبية اعتدائية – توسعية – استمدت جذورها من قديم التنافس بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح العربية الإسلامية الأولي في أطراف الإمبراطورية البيزنطية ، وفي أجواف الممالك المسيحية الغربية في إسبانيا، وفرنسا ،و إيطاليا ، وجزر البحر المتوسط ، تضاف إلي هذه العوامل العالمية الكبرى ، عوامل أوروبية

محلية وهذه ترجع إلي القرن الحادي عشر الميلادي ، وإلي صميم التاريخ الأوروبي في ذلك القرن [٥] ".

وعندما نتأمل هذا التعريف الشامل المحكم الذي أورده صاحبه المؤرخ الرائد عام ١٩٦١م أي منذ (٥٥) عاماً ؛ ندرك ريادته وشمولية رؤيته لذلك المشروع الذي قام به الغرب الأوروبي ضد الشرق الإسلامي في العصور الوسطي.

والأمر المؤكد حرصه علي توضيح أن الحروب الصليبية ، جزء اصيل من صميم التاريخ الأوروبي في العصور الوسطي، وبالتالي لا تفهم دون إدراك طبيعة ذلك التاريخ وعناصره الرئيسية المكونة له علي الأرض الأوروبية ذاتها.

"من ناحية أخرى ، أشار مؤرخنا إلي المؤلفات الغربية عن الحروب الصليبية ، وذكر ما ألفه المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه Rene Grousset والمؤرخ البريطاني السير ستيفن رنسيمان Sir Steven Ruciman وأضاف قائلاً : " وليس يوجد في اللغة العربية حتى العصر الحاضر ما يمكن أن يوازي هذين المرجعين الكبيرين من حيث التعمق في البحث ، مع العلم بحاجة المكتبة العربية إلي مؤلف عام مشابه"[٦].

ولا نغفل هنا أنه كان أستاذاً لتلميذه الفذ سعيد عاشور ، وكتب هذا الرأي عام ١٩٦١م ، ومن بعد ذلك بعامين أصدر المؤرخ الأخير كتابه الموسوعي الرائد بعنوان الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطي ، ولذلك من المرجح منطقياً أن تأليفه كان بتوجيه من أستاذه محمد مصطفي زيادة ؛ مما دل علي التلازم بين التلميذ وأستاذه من خلال مشروع علمي واحد.

لا نغفل كذلك حرص مؤرخنا علي إبراز فكرة وجود مصر في قلب الاهتمامات الصليبية في مراحلها الباكرة وقد أشار إلي تفكير زعماء الصليبيين السابقين جميعاً في ذلك المشروع (أي ضم مصر) في صورة أو بأخرى منذ أخذت رجال الحملة الصليبية المعروفة بالأولي تصل تتري إلي الشام ، أي قبل وصول حملة الملك لويس التاسع إلي الشواطئ المصرية بنحو مائة وخمسين سنة [٧].

من جانبي أري أن ذلك التوجه يؤكد الاختلاف بين المعلن من المشروع الصليبي وأهدافه المستترة ؛ فالمعلن من خلال خطاب البابا أوربان الثاني Urban II(١٠٨٩-١٠٩٩م) تحرير بيت المقدس من غزاتها ، بينما الواقع تكوين مملكة صليبية في بلاد الشام ومصر والنهب المنظم لثروات الإقليميين المحوريين في تاريخ التجارة العالمية في العصور الوسطي ، وهذا الوضع يدل علي أن الواقع الجغرافي العملي لتوسعات الصليبيين كشف عن الدوافع الحقيقية للحركة الصليبية وقد وقعت مصر في قلب اهتمامات ذلك المؤرخ خاصة أن كتابه صدر بعد [٥] سنوات فقط من العدوان الثلاثي من جانب إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ،و قد أعده بتكليف رسمي من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة التابع لوزارة الثقافة ، وأتجه من خلاله إلي تأكيد هزيمة مصر للعدوان الفرنسي في العصور الوسطي من خلال حملة الملك لويس التاسع عام ١٢٥٠م ، وكذلك فعلت عام ١٩٥٦م ، وفي ذلك قال عن مصر " الإقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة مركز جغرافي عظيم الجاذبية وسط مجتمع بناؤه السياسي عربي إسلامي بالشرق الأوسط ، منذ ألف وثلاثمائة وعشرين سنة ، علي وجه التدقيق ، واحتوى هذا المركز فيما أحتوى حتى ظهور الإسلامي علي دفائن فرعونية ، وعناصر قبطية ، وبقايا يونانية رومانية بيزنطية علي التعاقب ، وهي بقايا حضارات بادت بعضها تحت بعض بدرجات مختلفة ، من حيث المزايا ، والبقايا ، والآثار ، وظل هذا المركز الجغرافي الجذاب أعظم إغراء سياسياً للمجتمع الأوروبي المسيحي من سائر المراكز العربية الإسلامية الأخرى بالشرق الأوسط ، وغدا لذلك أكثر تعرضاً لما يتحرك أو يرتكض من أحشاء المجتمع المسيحي من حركات توسعية سياسية أو اقتصادية أو دينية ، أو هذه كلها مجتمعة في حركة ضامة واحدة كما حدث عند قيام الحروب الصليبية ،ووصول جيوشها من مختلف بلاد غرب أوروبا إلي القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في طريقها إلي الشرق الأوسط ، أواخر القرن الحادي عشر .[٨]

هكذا أكد مؤرخنا الرائد علي الخصوصية المصرية ، من خلال الموقع الجغرافي والعمق التاريخي والحضاري الذي هو قدرها علي مر حقب التاريخ.

بصفة عامة ، أدرك ا.د. مصطفي زيادة أهمية العامل الجغرافي ،وأن الجغرافيا توجه التاريخ وما التاريخ إلا الصراع عليها ، ولذلك نجده في سبيل اعداده لكتابه يسافر إلي دمياط والمنصورة لمشاهدة المواقع الجغرافية التي حدثت فيها معارك الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع ، وفي ذلك يقول :" ولذا عبرت النيل من هناك إلي برج السلسلة وهو البرج الذي زحف منه الصليبيون إلي دمياط القديمة ، ولا يزال اسمه مقروناً باسم عزبة البرج الحالية ، وهذه الأماكن والمواضع كلها لا يوجد من بقاياها ، فيما رأيت وشهدت سوى أسمائها ، ما عدا جامع أبي المعاطي القديم ، وقبة فاتح الأسمر ، والمنشية ، حيث توجد مقابر دمياط الحالية ، ثم ذهبت من دمياط إلي فارسكور جنوباً في محاذاة الشاطئ الشرقي للنيل ، كما فعل الصليبيون من قبل ووقفت عند ميت الخولي عبد الله، وشر مساح والبرامون ، كما وقفت حملة لويس التاسع واخترقت هذه البلاد كلها ، من مداخلها علي الطريق الزراعي العام إلي سواحلها علي النيل ، ثم وصلت أخيراً إلي المنصورة ، حيث أقامت بضعة أيام ، ذهبت في أثنائها إلي جديلة وموضع مخاضة سلمون ، كما زرت موضع دار ابن لقمان ، حيث أمضى الملك لويس معظم أيام أسره بالبلاد المصرية [٩].

هكذا أكد لنا ذلك المؤرخ الرائد أن الاطلاع علي مسرح الأحداث من شانه تقديم العديد من الدلالات للمؤرخ وبدون فهمه يصبح عمله قاصراً لأنه في هذه الحالة ينفصل عن واقعه الجغرافي الذي هو ثابت ولم يطرأ عليه تغيير بعد تعاقب كل هذه القرون

لا نغفل كذلك حرصه علي الإشارة إلي تباين الرؤية من المؤرخ الغربي والعربي لأحداث الصليبيات ، وفي ذلك قال : لا يستطيع المؤرخ الفرنسي الحديث علي سبيل المثال أن يرى في حملة الملك لويس التاسع وهزيمته في المنصورة ما يراه المؤرخ العربي المصري ، إذ الأول معتد والثاني معتدى عليه ، والاثنان لا يتفقان مع العلم بأن الجانب العربي المصري هنا هو الجدير بالتقدير والاعتبار ، لكن كلاً من هذين الطرفين المختلفين ، لا يستطيع أن يغير شيئاً من الحوادث التاريخية التي حدثت " [١٠].

هكذا شرح لنا ذلك المؤرخ الرائد عام ١٩٦١م كيف أن كل مؤرخ من الجانبين له رؤيته وتصوره الذي يختلف عن الآخر ، ومن المهم هنا ملاحظة نجاحه باقتدار في الإفلات من الرؤية " الجوانفيلييه "التي قال بها المؤرخ الفرنسي جان دي جوانفيل [١١] Jean de

Joinville عندما ألّف كتبه الشهير Histoire de la vie de Saint Louis ، فيلاحظ أن مؤرخنا تعامل مع لويس التاسع كملك فرنسي وليس كقديس وبالتالي نظر إلي ذلك الملك علي أنه جزء من المشروع العدواني الصليبي في العصور الوسطي .

كذلك لا نغفل إدراكه لتعدد تصورات المؤرخين وفق انتماءاتهم المتعددة ، الأمر الذي أعطي حيوية خاصة لعلم وفن دراسة التاريخ لذلك وجدناه يقرر ما نصه : " إن كتابة التاريخ من زوايا مختلفة الشكل عمل علمي سليم ، وأن الموضوعية المطلقة ،المجردة عن الطبائع البشرية ،ضرب من المحال في البحث التاريخي ، لأن لكل مؤرخ زاويته الجغرافية والثقافية والحضارية ، وهو لا يستطيع التحلل من أية واحدة منها مهما طرأ عليه من طارئ عابر " (١٢).

وهكذا ، نجده في أثناء عرضه لتاريخ حملة لويس التاسع علي مصر وهزيمته في المنصورة يقدم لنا منظوره التاريخي ، ويؤكد ضمنياً علي اختلاف تصورات المؤرخين حيال تلك الظاهرة التاريخية الكبرى في عالم العصور الوسطى وأعني بها الحروب الصليبية وفي معرض تناولنا لإسهام ا.د. محمد مصطفي زيادة في تاريخ الحروب الصليبية.

نجده يقدر السلطان صلاح الدين الأيوبي (١٣) (١١٧١-١١٩٣م) أيما تقدير وعند وفاته في٤ مارس ١١٩٣م أشار إلي الأمر علي النحو التالي :" بوفاة صلاح الدين توارت عن الأنظار شخصية ظلت ملء العين والقلب ، وموضع الإعجاب والهيبة في الأوساط الشرقية الإسلامية والغربية المسيحية " ، وقد استشهد بمقولة للمستشرق مينورسكي Minorsky حيث أردف قائلاً : " ولمؤرخ أوربي في تقدير أعماله ، ومواهبه عبارة تغني عن الاسهاب والتفصيل ، ونصها مترجمة عن الإنجليزية "لم يحظ قائد من قادة الحرب والسياسة بتقدير خصومه وإعجابهم باستثناء نابليون بونابرت مثلما حظى صلاح الدين الأيوبي بتقدير خصومه من الصليبيين " (١٥) وبالفعل جاءت هذه الفقرة لتؤكد تقدير ذلك المؤرخ الرائد البارز لبطل حركة الجهاد الإسلامي عصر الحروب الصليبية.

لقد كان مؤرخنا موضوعياً عندما قدر بعض القيادات الإسلامية ، وهاجم بعضها ومثال دال علي ذلك عند تعرضه للوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الدين الجمالي حيث قال عنه : " الأفضل شاهنشاه وزير الدولة الفاطمية ، وهو الوزير الذي سيطر علي شؤون تلك

الدولة تلك الدولة تمام السيطرة داخلياً وخارجياً مدة ربع قرن وهو صاحب مشروع الاتفاق الأول مع الصليبيين ، وإليه يرجع تطور السياسة الفاطمية–بعد انهيار ذلك الاتفاق إلي عداء ضد مملكة بيت المقدس "[١٦].

إن أهمية الإشارة المذكورة من جانب ا.د.محمد مصطفي زيادة ،تعبيرها عن الاتفاق بين الفاطميين والصليبيين علي العمل الحربي المشترك ضد السلاجقة السنة ، وهو أمر ظهر أثناء حصار الغزاة لأنطاكية ، وقد أشارت إلي ذلك المصادر الصليبية ، وألمح إليه المؤرخ العراقي البارز ابن الأثير (ت ١٢٣٢م) في الكامل وانهى روايته بعبارة " والله اعلم " ، لذلك وجد هناك من المؤرخين المحدثين الذين تعاطفوا مع الفاطميين من شكك في أمر هذا الاتفاق [١٧] ،و الواقع يؤكد علي نحو دل علي قصر نظر الفواطم وتوهمهم أن في إمكانهم التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة ، غير مدركين أن الغزاة قدموا من أجل سد الفراغ السياسي الذي كانت تعاني منه المنطقة وعلي حساب كل من الفاطميين والسلاجقة مما دل علي دهاء المستعمر الجديد الذي كانت الأرض ممهدة له من خلال التصارع السياسي والمذهبي .

من جهة أخري ،حرص مؤرخنا علي توضيح أن قادة المشروع الصليبي عبروا عن توجه واحد أنهم أتصلوا ببعضهم البعض بصورة أو بأخرى فقد تناول جودفري بويون [١٨] أول حاكم لبيت المقدس من الصليبيين ، كذلك تعرض لأخيه بلدوين البويوني [١٩] وقال عنه :" هذا الملك هو الذي دلل بمغامرته في تأسيس إمارة الرها أن الحركة الصليبية تنطوي علي أغراض توسعية مرة أخرى بإغارتيه علي الأطراف المصرية رغبة منه فيما يبدو في تحقيق فكرة أخيه جودفري دي بويون في الاستيلاء علي مصر" [٢٠].

جدير بالذكر ، اهتمام مؤرخنا بالرحالة المسلمين في العصور الوسطي ، ومنهم من عاصر مرحلة الحروب الصليبية ، فقد ألف مقالاً عن ابن جبير (ت١٢١٧ م) في وقت مبكر وتحديداً في عام ١٩٣٩م.والأول يعد أمير الرحالة المسلمين عصر الحروب الصليبية ، حيث سلط الأضواء الكاشفة في رحلته علي العديد من الجوانب الحضارية التي أغفلتها المصادر التاريخية المعاصرة.

والمرجح أن مؤرخنا أدرك بعمق أن الرحلة هي عين الجغرافيا المبصرة وأن الرحالة يدرك من خلال قدومه إلي مناطق جديدة ما لا يراه أبناء المكان الأصليين الذين اعتادوا أموراً عديدة ويعد ذلك المؤرخ من أوائل المؤرخين الذين سلطوا الأضواء علي رحلة ابن جبير وأهميتها كمصدر تاريخي لذلك العصر الصاخب الأحداث كذلك لا نغفل إدراكه الباكر لأهمية دور نورالدين محمود (١١٤٦-١١٧٤م) في حركة الجهاد الإسلامي عصر الحروب الصليبية.

ولذلك أقترح علي تلميذه حسن حبشي دراسة هذا الموضوع في رسالته للماجستير وبالفعل طبعت بالقاهرة عام ١٩٤٨م ،فكانت أول دراسة أكاديمية عربية حديثة عن ذلك القائد المسلم البارز ، وأحتوى الفصل الآخر منها علي دراسة لجوانب حضارية عصر الحروب الصليبية بصورة رائدة لم يتطرق إليها باحث من قبل.

من جهة أخرى ، أدرك ا.د. محمد مصطفي زيادة أهمية موقع جزيرة قبرص Cyprus العبقري قبالة الساحل الشامي ، ودورها في ذلك العصر حيث أعتبرت محطة تموين متقدمة للصليبيين ، ولذلك جعل تلميذه سعيد عاشور يدرس موضوع قبرص والحروب الصليبية في دراسة للماجستير ، فكانت أول دراسة علمية حديثة عن تلك الجزيرة التي لا يكتب تاريخ شرقي البحر المتوسط بدونها من خلال التنافس الدولي عليها خلال حقبة العصور الوسطي.

لا نغفل كذلك، اهتمامه بالتاريخ الحربي ، لذلك طلب من تلميذه نظير حسان سعداوي دراسة التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وأعد اطروحته للدكتوراه –التي كانت رائدة بكل المقاييس وقد نشرت عام ١٩٥٩م ، ولا تزال إلي يومنا هذا ذات أهمية علمية متجددة علي الرغم من مرور ما زاد عن النصف قرن علي صدورها.

ومن الانصاف القول بأن مدرسة محمد مصطفي زيادة ،كان لها دورها في الاشراف العلمي الدقيق علي عشرات الباحثين المصريين في مجال تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ الأيوبيين والمماليك.

ومما يذكر لذلك المؤرخ الرائد حرصه الشديد علي اخراج علم وفن التاريخ من قاعات الدرس بالجامعة المصرية إلي مجال ارحب ، فكان أمرالثقافة ، ولذلك شارك في سلسلة خاصة بتثقيف أفراد الجيش المصري ، فألف مؤلفات تاريخية مبسطة دون أن تفتقد الطابع العلمي لها وبالتالي ساعد علي تعميق الهوية الوطنية في مرحلة كانت مصر في أشد الاحتياج إليها.

نأتي الآن إلي إدراك أهم سمات كتابة مؤرخنا عن عصر الحروب الصليبية ، وهو أمر نجده من خلال الملاحظات التالية :

أولاً : الحرص الشديد علي التوثيق المصدري سواء المصادر المعاصرة أو المتأخرة دون أن يغفل الجانب المرجعي من أجل الإفادة من وجهات نظر المؤرخين المحدثين.

ثانياً :اتجه مؤرخنا إلي الدقة في إثبات زمن وقوع الحدث التاريخي يوماً وشهراً وعاماً ، بل ووضع المقابل الهجري للتحديد الميلادي ، وقد امتازت كتابته التاريخية بمثل هذه الناحية.

ثالثاً : النقد والتحليل ، ولا أدل علي ذلك من تناوله لمن أرشد الصليبيين خلال حملة لويس التاسع علي مخاضة سلمون وتوصل إلي القول :" فلو كان هذا الدليل قبطياً مسيحياً ، علي وجه التحقيق ، لما أكتفت المراجع العربية الإسلامية التي رجحت ذلك ، بأن تقول إنه كان من غير المسلمين فحسب ، ولما ترددت في التفصيل والتشنيع والتقريع ، شأن المؤرخين جميعاً ، في النواحي الماسة بالدين في العصور الوسطي [٢١].

رابعا: أمتاز مؤرخنا بوضوح الفكرة وسلاسة الأسلوب ، وبراعة التعبير ، وهو أمر منطقي تماماً مع مؤرخ عاصر أعلام الأدب الصري شعراً ونثراً مثل أحمد شوقي ،و حافظ إبراهيم ، وطه حسين ،و العقاد ،و المازني، وغيرهم ، ومثل تلك الناحية وجدناها في تلاميذه أيضاً خاصة حسن حبشي.

خلص البحث إلي عدة نتائج يمكن إجمالها علي النحو التالي :

أولاً : يعد ا.د. محمد مصطفي زيادة مؤرخاً رائداً في مجال تاريخ الحروب الصليبية ، وقد قدم دراسة أكاديمية راقية عام ١٩٦١م عن حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة

ولا تزال هذه الدراسة بعد ٥٥ عاماً منذ صدورها تحتفظ بأهميتها وقيمتها المتجددة. دون أن أغفل أهمية الجهد البارز الذي قام به المؤرخ السكندري الراحل ا.د. جوزيف نسيم يوسف [٢١] الذي تخصص في دراسة النشاط الصليبي لذلك الملك في مصر وكذلك بلاد الشام.

ثانياً : كان ا.د. محمد مصطفي زيادة رائداً في توضيح مشكلات دراسة تاريخ الحروب الصليبية ، وأوضح ضرورة أن نكون أنفسنا عند الكتابة عن تاريخ تلك المرحلة الفارقة عن تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، لذلك لم يتعامل مع لويس التاسع كقديس ، بل كملك فرنسي طامع في ثروات الشرق ، وعارض توجهات المؤرخين الفرنسيين ، علي نحو دل علي حرصه الشديد علي أن تكون لنا هوية عربية إسلامية.

ثالثاً : عند تقيمنا لدور ذلك المؤرخ الرائد من الممكن ترجيح أنه وراء دفع تلميذه الفذ سعيد عاشور نحو تأليف كتابه الرائد الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطي ،وقد صدر عام ١٩٦٣م وبالتالي حقق أمنية ا.د. محمد مصطفي زيادة الذي كتب عام ١٩٦١م عن خلو المكتبة العربية عن دراسة موسعة عن تاريخ الحروب الصليبية وهكذا حقق العلمي أمنية أستاذه بعد عامين فقط ، وقبل خمس سنوات من رحيله شخصياً عام ١٩٦٨م.

رابعاً : لا يمكن الفصل بين إنجازا. د. محمد مصطفي زيادة في مجال الصليبيات عن العصر الذي عاش فيه ، فقد ولد بعد ثماني أعوام من الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وعاصر كفاح مصر من أجل الاستقلال .وصولاً إلي خروج المستعمر البريطاني من مصر عام ١٩٥٤م ، ثم العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م ، وقد أصدر كتابه عام ١٩٦١م بعد خمس سنوات من اندحار ذلك العدوان الغاشم، وقد أراد ا.د. زيادة أن يوضح لكل قارئ مصري وعربي أن مصر هزمت في العصور الوسطي فرنسا ، وها هي تهزمها وهي تتعاون مع إنجلترا وربيبتهما إسرائيل.

ذلك عرض عن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الهوامش

(١) عن محمد محمد مصطفي زيادة أنظر :

سعيد عاشور ، الدكتور محمد مصطفي زيادة ، المجلة التاريخية المصرية ،م(١٦) عام ١٩٦٩م ، ص ٣- ص ١٤ ، أيمن فؤاد سيد ، رواد الدراسات التاريخية المصرية م(٣٩) ، عام ١٩٩٦م ، ص٩٦ ، ص ٢٩٧ ، كشاف مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، ١٩٤٨-١٩٩٥م ،ط. القاهرة ١٩٩٥م ، محمد مؤنس عوض ، رواد تاريخ العصور الوسطي في مصر ،سلسلة تاريخ المصريين ،ط. القاهرة ٢٠٠٧م ، ص ١٤٣ -ص ١٦٠.

(٢) عن حسن حبشي أنظر :

محمد مؤنس عوض ، رواد تاريخ العصور الوسطي في مصر ،ص ٢٦٥- ص ٢٧٧.

نفسه ، حسن حبشي مؤرخ مصري رائد في العصور الوسطي "، ضمن كتاب عصر الحروب الصليبية ، بحوث ومقالات ،ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٢٥٧- ص٢٦٢.

(٣) عن سعيد عاشور أنظر :

مجموعة من الباحثين ، سعيد عاشور إليه في عيد ميلاده السبعين ، ط. القاهرة ١٩٩٢م ، محمد مؤنس عوض ، رواد تاريخ العصور الوسطي فيمصر ، ص ٨٨- ص١٠٣.

(٤) عن لويس التاسع أنظر:

Jean de Joinville, The life of St. Louis, in Chronicles of The Crusades, Trans. M.R.D. Shaw, Penguin Book, London 1970.

Primat, Chronique de primat, Traduit par Jean du Vignay, R.H.G.F., TXXIII, Paris 1894.

W.C. Jordon, Louis IX and The challenge of The Crusade, A study of The Ruler ship, Princeton 1979.

فايز نجيب إسكندر ، المقاومة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي علي تونس ،ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي ،ط. المنصورة ب.ت.

هشام الحسيني ، السياسة الخارجية لفرنسا في عهد لويس التاسع (١٢٢٦- ١٢٧٠م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة حلوان ٢٠٠٠م.

حياة ناصرالحجي ، السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع ،ط. الكويت ١٩٨٣م ، مصطفي الكناني، حملة لويس التاسع علي تونس ،ط. الإسكندرية ١٩٨٥م.

محمد مصطفي هدارة ، المنصورة قصة البطولة العربية وهزيمة لويس التسع ،ط. الإسكندرية ١٩٧٠م.

جوزيف نسيم يوسف ، هزيمة لويس التاسع علي ضفاف النيل ، حملة لويس التاسع علي مصر والشام ،ط. القاهرة ١٩٤٩م.

(٥) محمد مصطفي زيادة ، حملة لويس التاسع علي مصر وهزيمته في المنصورة ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ،ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص هـ من التصدير.

(٦) نفسه ، ص ١-ص٢.

(٧) نفسه ،ص هـ من التصدير.

(٨) نفسه ، ص ١.

(٩) نفسه ، ص "ط" من التصدير.

(١٠) نفسه ، ص "ز" من التصدير.

(١١) عن جان دي جوانفيل أنظر :

Joinville and Villehardonin, Chronicles of The Crusades, Trans. M.R.B. Shaw, penguin Book, London 1963.

أيضاً : الترجمة العربية ومقدمتها :

جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته علي مصر والشام ، ت. حسن حبشي ،ط. القاهرة ١٩٦٨م ، محمد مؤنس عوض ، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب ،ط. القاهرة ٢٠١٥م ، ص٤٨٢،ص ٤٨٣.

(١٢) محمد مصطفي زيادة ،حملة لويس التاسع علي مصر وهزيمته في المنصورة ، ص ٢٥٩.

(١٣) عن صلاح الدين الأيوبي ، من الممكن الرجوع إلي المؤلفات التالية :

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ،ط. القاهرة ١٩٦٤م.

العماد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبيح ،ط. القاهرة ١٩٦٥م ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس ،جـ٧ ،ط. بيروت ١٩٧٨م ، ص ١٣٩- ص٢١٨.

محمد مؤنس عوض ،صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة ،ط. القاهرة ٢٠٠٨م.

ـــــ، رحلة إلي صلاح الدين الأيوبي ،ط. القاهرة ٢٠١٢م.

ـــــ ، صلاح الدين الأيوبي فارس عصور الحروب الصليبية ، آراء وتصورات ،ط. القاهرة ٢٠١٣م.

ـــــ ، قالوا عن صلاح الدين الأيوبي ، ط. القاهرة ٢٠١٣م.

ـــــ، صلاح الدين الأيوبي نسر الشرق الرحيم ، ط. القاهرة ٢٠١٤م.

ـــــ، (١٠٠) كتاب عن صلاح الدين الأيوبي عرض ونقد ،ط. القاهرة ٢٠١٤م.ـــــ ، صلاح الدين دليل ببليوغرافي أولي ،ط. رام الله ٢٠١٤م.

A.Champdor, Saladin, le plus pur heros de l,Islam, Paris 1956.

G. Hindley, Saladin, London 1976.

(١٤) محمد مصطفي زيادة ، المرجع السابق ، ص ٣٦.

(١٥) نفسه ، ص ٣٦.

أود التأكيد علي الفارق الشاسع بين صلاح الدين الأيوبي والفارس الفرنسي نابليون بونابرت المهزوم في أبو قير البرية والبحرية ووترلو والذي بدد طاقات فرنسا وشبابها في حروب طاحنة خاسرة.

(١٦) محمد مصطفي زيادة ، المرجع السابق ، ص ٧.

(١٧) عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي ،ط. بيروت ١٩٦٦م ، ص ١٤٥.

(١٨) محمد مصطفي زيادة ، المرجع السابق ، ص ٧. عن جود فري دي بويون أنظر :

Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem, Trans, Rita Ryan (Sisters of St. Joseph), Tennesse 1969,p.72.

J.c. Andressohn , The Ancestry and Life of Godfrey of Bonillon,Bloonington 1947.

P. Aube, Godfroy de Bouillon, Paris 1985.

سرور عبد المنعم ، جودفري دي بويون حاكماً للكيان الصليبي ١٠٩٩- ١١٠٠ ، مجلة بحوث الشرق الأوسط ، عدد (٢٤) عام ٢٠٠٤م ، ص ٢٢٩- ص ٢٧٩.

صبري ناصر مكين ، جودفري دي بويون ودوره في دعم الحركة الصليبية في آسيا الصغرى وبلاد الشام (١٠٩٥- ١١٠٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة.

(١٩) محمد مصطفي زيادة ، المرجع السابق ، ص ٧.

عن بلدوين الأول أنظر :

Fulcher of Churtres, pp137- 223.

William of Tyre , A History of deeds done beyond The sea, Trans. E.A. Babcock and A. C. krey, Vol. I, New York 1943,pp415-416.

هنادي السيد محمود ، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول ١١٠٠-١١١٨م / ٤٩٤- ٥١٢هـ ، ط. القاهرة ٢٠٠٨م.

مصطفي الكناني ، حملة بلدوين الأول ١١١٨م أول حملة صليبية علي مصر ،ط. القاهرة ب-ت.

(٢٠) محمد مصطفي زيادة ، المرجع السابق ، ص٧.

(٢١) نفسه ، ص ١٤٤ ، حاشية (١).

(٢٢) محمد مؤنس عوض ، رواد تاريخ العصور الوسطي في مصر ، ص ١٩٤- ص ٢٠٣.